من ذكريات لبنان

كيف كنت غيرى ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كنا نقصف — ذات ليلة — فى فندق كبير فى « ضهور الشوير » . والقصف أن نشرب ونضحك ونأكل — بعيوننا — الفتيات المشوقات اللواتى يخطرن فى المرقص مع السعداء من الشبان ، وكانت الأنوار فى المرقص ألواناً شتى متعاقبة ، وكان الضوء الأرجوانى — حين ينساب الفتيات فيا يترقرق عليهن منه — أقوى فتنة وأشد إغراء ، فكنا ننهض عن المائدة ونتزاحم على أبواب المرقص ، وعيوننا تكاد تخرج من فرط التحديق ، وكانت هناك فتاتان تتراقصان وتأبيان أن يخاصرها الرجال ، وكانتا ساحرتين — فى جمالها ، ودلها ، ولعبهما ، وحركاتهما . فأغريت بهما أحد رفاقى — وكان يجيد الرقص — وأنا أقول لنفسي : « اذا راقص إحداها عرفناها جميعاً وفزنا بصحبتهما » ولكنهما ردتاه ببسمة وكلمة رقيقة لاتغنى ولا تسمن

فقلت لنفسى : « لم يبق لها إلا رجالها » ودنوت منهما وقلت وأنا أتناول كرسياً وأجلس بغير استئذان :

« أمِنْ قلةٍ فى الرجال تتراقصان ؟ »

فقالت إحداها — بعد أن ألقت الى صاحبتها نظرة :

« بل من كثرتهم ! »

فقوّى قلبي أنها ردت ، فقلت : « اسمعا منى . إن هذه النظرات الخبيثة التى تتبادلانها لن تجديكما .. (ضحك) وأنا باسم هؤلاء الشبان الكثيرين الذين لا أعرف أسماءهم ولا أحب أن أعرفها ...... »

فسألت احداها : « لماذا ؟ »

فقلت : « لاتقاطعى من فضلك ! ثم إن هذا شأنى وحدى ، وعلى ذكر ذلك أسألك ... هل أنت مصرية مثلى ؟ »

فقالت الخبيثة — أعنى التى تتكلم — : « هل أنت مصرى ؟ »

فصحت بها : « يخرب عقلك ! وهل ترين أنى أتكلم إلا كما يتكلم المصرى ؟ »

فضحكتا وقالت الأخرى : « هذا أحسن . لقد كنت أسأل نفسى أين يا ترى رأيتك ؟ »

فقاطعتها : « نعم إنى أراك دائماً ...... »

فسألتنى جادة : « أين ؟ »

فقلت : « بخيالى ... فى أحلامى ! »

فقالت الأولى وهى تبتسم — لا أدرى لماذا — ألست عبد .... عبد الله ؟ »

فتنهدت وقلت : « طبعاً ، طبعاً ، عبد الله حقاً وصدقاً »

قالت : « لقد كنت واثقة أنى أعرف وجهك .... ألم تعرفيه يا توحة ؟ »

فأجبتها أنا : « لماذا تحرجينها ؟ دعى لها سرها حتى تهمس به فى أذنى ، ونحن نتمشى فى غابة بولونيا ، والقمر الطالع .....»

فضحكتا وقالت توحة : « بهذه السرعة ؟ »

فقلت : « معذرة ! إن خيالى وثاب .... طيار اذا شئت ، ولكنه صادق .... لايطير إلا بجناحين من الحقيقة »

فقالت الأولى : « وكيف زوجتك ؟ »

فصحت : « إيه ؟ »

ولم أكن أتوقع أن ترميني بسؤال عن زوجتى ، وخفت أن يكون وراء السؤال شرك منصوب ، فلذت بالحذر . وقالت :

« إنما سألت كيف زوجتك ؟ »

فقلت : « زوجتى ؟؟ أوه ! آه ! مفهوم ! »

قالت : « لماذا تركتها ؟ »

فلم أدر ماذا تعني بالترك ؟ وآثرت أن أروغ فقلت :

« هل تعرفينها ؟ »

فقالت الخبيثة : « إنه يسأل هل أعرفها ؟ قولى له ياتوحة »

فدار رأسى ، وارتبكت ، فما رأيتهما قط فى بيتنا ولا فى بيوت أحد من أهلنا أو معارفنا ، وزاد شعورى بالشراك المنصوبة تحت كل كلمة ؛ ولعنت الساعة التى أقدمت فيها على كلامهما ، ولكنى كنت قد تورطت ، وانتهى الأمر ، ولم تبق لى حيلة ، وخجلت أن أنهزم أمامهما فتشددت وقلت :

« ما أجمل هذه المصادفة ! بالله حدثاني عن نفسيكما . . . . إن أذنيّ معكما . . . . لكل واحدة منكما أذن . . . تكلما . . بارك الله فيكما ، وفي ليلتي هذه معكما ! »

فقالت الخبيثة : « ماذا جرى بينكما ... إلا أن يكون هذا سراً لا تحب الأفضاء به »

فقلت : « لا لا لا ... وعلى أنه لم يجر بيننا إلا ما يجري بين الزوجين ... أعني عادة ! »

فقالت توحة وهي تضحك : « إن الذي تعنيه أختي ... »

فسألتها « أختك ؟ »

فقالت « نعم أختي ... من كنت تظنها ؟ »

فقلت « كنت أظنها ... إ... أ ... أختك »

فأضحكهما هذا التخليط ، وضحكت معهما . ولما قرّت الضجة قلت :

والآن يا أختها بأي اسم تخاطبين نفسك حين تنظرين في المرآة ؟

فقالت : « أتريد أن تعرف اسمي ؟ »

فأردت أن أستفزها فقلت : « لا (بفتور) يكفي أن أعلم أنك أخت توحة »

ولكنها كانت أخبث مما توهمت ، فقالت :

« نعم كفاية . والآن ألا تحدثنا عن سبب انفصالك عن زوجتك ؟ إنها صديقتنا من أيام المدرسة ، وقد آلمنا ما وقع ، ولكن لعل لك عذراً »

فحمدت الله في سري على جهلها بي وبزوجتي ، وأيقنت أني آمن معهما ، ولكني مع ذلك حاولت أن أزحزح الحديث عن هذا الموضوع فقلت :

« هذا شيء مضى ، ومن العبث الكلام فيه »

فقالت أخت توحة : « مسكينة ! »

وقالت توحة : « ما أفظع الرجال ! يأكلون المرأة لحما ، ويرمونها عظما »

وألفيت نفسي غرضاً لسخطهما ونقمتهما ، فضاق صدري وقلت :

إني لم أكن أحب أن أقول شيئاً ، ولكن الرجل لا يستطيع أن يظل يحتمل طول عمره أن يرمى بصحاف الطعام الملآى

فصاحت توحة : « إيه ؟ ماذا تقول ؟ »

وأعجبني صوتي ، وسرني أني تبينت آية الدهشة في وجهيهما فمضيت أقول :

لقد كانت تتناول قطتي البيضاء وتلعب بها الكرة ، أو تمسكها من ذيلها وتطوح بها ذراعها ، وتزعم أن هذا خير من اتخاذ الحديد للعب »

فقالت أخت توحة : « مستحيل ! لا أصدق »

وقالت توحة : « زينب تفعل ذلك ؟ ! ؟ »

فقلت : « المسألة بسيطة والبرهان حاضر ، تعاليا معي الى مصر وأنا أريكما القطة ! »

وآلمني أن أمزق (زينب) هذه بالغيب ، وأدركني عليها عطف شديد ، ولكن ماذا أصنع وقد أبت الفتاتان الا أن تحشراها في الحديث حشرا ، والا أن تركباها كتفي ، وتزعماها زوجة لي ، وتدعيا أني أسأت اليها وجنيت عليها وتخليت عنها ؟

وقالت توحة : « ولكن كيف يمكن ؟ لقد كانت في المدرسة أرق التلميذات قلباً ؟ »

فهززت رأسي وقلت : « وأشهد أنها ظلت كذلك زمناً حتى اعتادت الشراب »

فصاحتا بصوت واحد : « الشراب ؟ زينب ؟ »

قلت : نعم ، مع الأسف ! وبعد ذلك انقلبت زوبعة لا تسكن قط ... بالله اتركا هذا الحديث ... إنه يؤلمني ... وما أفضيت اليكما بهذه الحقائق إلا لأنكما كنتما معها في المدرسة ، فاعذراني وانتقلا إلى كلام آخر »

* * *

وصرنا أصدقاء ، نلتقي كل بضعة أيام ، أعني أني كنت أزورهما من حين الى حين في مصيفهما « بضهور الشوير » ، ونخرج الى البساتين والضياع المجاورة ، ثم مضت فترة لم أرهما فيها ، واتفق يوماً أني كنت مدعواً الى حفلة في فندق بيروت ، فبصرت بأخت توحة واقفة تطل على البحر ، فوقفت الى جانبها وحييت ، فردت التحية بفتور فقلت :

« الجو حار »

قالت : « نعم »

قلت : « ولكن البحر يلطف الحرارة »

قالت : « نعم »

ولم يخطر لى كلام جديد فقلت :

« كبرٌ ما بنا أم جفوة ؟ »

فواجهتنى وسألتنى بحدة :

« ألا يزال اسمك عبد الله ؟ »

قلت : « يا فتاتى لا تجهلى ! ما زلت عبد الله حقاً وصدقاً ، وإن كنت مع هذا لا أنكر أنه غير الأسم الذى اختاره لى أبواى »

قالت : « ألا تخجل ؟ »

قلت : « إنى أستحق عطفك . . لقد احتملت هذا الاسم الذى لا يبعث على الزهو ، لأنك أنت اخترته لى »

قالت : « لقد رأيت زينب . . . وأخبرك أيضاً أنها مع زوجها ، وأنهما يقضيان الصيف فى لبنان . لماذا قلت عنها ما قلت ؟ »

قلت : « أى زينب ؟ »

قالت : « لا تكابر ! إنها لا تعرفك ولم ترك قط فى حياتها »

قلت : « ما أضعف ذاكرة النساء ! »

قالت : « إن عذرك الوحيد — فى نظرى — أنك مجنون . وكلما تذكرت ما قلته عن زينب وما أضعته سدى من العطف عليك . . . »

فقاطعتها : « كلا . لم يضع . . . لقد زادنى هذا حباً لك وتعلقاً بك . . . »

قالت : « ألا تزال تجرؤ على مثل هذا الكلام ؟ »

قلت : « أو يحتاج ذكر الحقيقة والاقرار بها إلى جرأة ؟ »

قالت : « وتتصور أنى أصدقك أو أصدق أنك تتكلم جاداً ؟ »

قلت : « كلا . إن هذا لا يجرى لى فى بال . إنما أنا منظر . . ويمكنك أن تعدى كلامى صورة طبق الأصل من حديث أحلامك ونجوى أمانيك . . . وسيأتى يوم تظلم فيه الدنيا أمام عينيك ، وتحسين أنه ما من أحد يحبك فى هذه الحياة — كلنا يمر به يوم كهذا — فاذا جاء — أعنى ذلك اليوم — فقولى لنفسك . . كلا . إنى مخطئة . فان فى الدنيا قلباً يخفق بحبى ، يحبى مخلصاً ، . . »

فقالت : « إنك مجنون ولا شك »

قلت : « وفى أثناء ذلك ترين شخصيتى الجميلة الجذابة تتفتح تحت عينيك كما تتفتح غلائل الزهرة تحت أشعة الشمس . . »

قالت : « لن أصغى لك »

قلت : « اذن احضرى معى هذه الحفلة ، وكونى فيها ملاكى الحارس »

فصاحت بى : « لن أغفر لك هذا »

فقلت : « إنى لست عبد الله ! ولكنى عبده والله ! »

فابتسمت ، فقلت : « هذا أحسن وأين توحة ؟ »

قالت : « لو كانت هنا لما نجوت بهذه السهولة »

قلت : « الحمد لله — أعنى على النجاة لا على غيابها . اذهبى بى إليها »

قالت : « والحفلة ؟ »

قلت : « تستطيع أن تنتظر — أعنى الحفلة — فان مرضاتها — أعنى توحة لا الحفلة — أولى وأندى على كبدى . »

وكان هذا هو السر الذى لم يعرفه المحتفلون ، فى أن حفلتهم تأخرت نصف ساعة . فليت حظى من كل حفلة نصف ساعة كهذه !

ابراهيم عبد القادر المازنى

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

صحائف من العشرين

شاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرتين ، وجذوة من شعوره ، ولحن من شعره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلبها منها أو من ادارة الرسالة أو من أى مكتبة